المحاضرة الثالثة: المماليك البربرية.

تمهيد:

أولا: أصل ومفهوم كلمة البربر.

شكل موضوع أصل البربر والأمازيغ اهتمام الباحثين والدارسين، الذين اختلفوا في تحديد جذورهم، فهناك من يرجع أصلهم إلى شعوب البحر الأبيض المتوسط، والبعض يرجعهم إلى أصول مشرقية، والبعض إلى أصول أوربية، ولم يتم الحصول إلا على روايات متضاربة وآراء متناقضة، فالمؤرخون القدامى من اليونانيين والرومان وحتى بعض المؤرخين العرب اعتمدوا على الرواية والنقل في استقاء المعلومات، أما المؤرخون المتأخرون فقد اعتمدوا على العناصر المرتبطة باللغة والحالة والصناعة.**(الطيب قديم :2024، 43).**

كانت شمال إفريقيا آخر ما قصده الفاتحون العرب قبل إسبانيا في الفتح وقد تقبله الامازيغ بسعة ورحابة خاطر، وخير مثال على صور التلاحم بين العرب الفاتحين والامازيغ بمثله قيادة الجيش الفاتح لإسبانيا بقيادة البطل الامازيغي طارق بن زياد، حيث حقق هذا القائد التاريخي نصراً تاريخياً بفضل تضافر جهود العرب والامازيغ، إنها أسمى صور التلاحم الأخوي عبر التاريخ تحققت بفضل الإسلام وهو العامل الذي توحد بفضله العرب والامازيغ، وشاع بفضل تعاليمه صور التكافل والانصهار الاجتماعي وهنا لا تقوتنا الإشارة إلى أن الامازيغ لم تسلب أرضهم أو أرزاقهم في ضل الحكم الإسلامي على خلاف ما وقع أيام الاستعمار الروماني أو البيزنطي أو الوندالي. كل الأمر الذي أعطى صورة إنسانية وأخوية للعرب في نظر الامازيغ.**(الجرد انتصار:10).**

يعتبر البربر من اقدم السكان الذين استوطنوا بلاد المغرب حيث ترتكز مجتمعاتهم جغرافيا ما بين برقة (ليبيا) و المحيط الاطلسي شرقا وغربا و ما بين السودان و البحر الابيض المتوسط شمالا و جنوبا ، اما من الناحية اللغوية فيمكن رد اصل تسمية 'البربر' الى عدة روايات تداولها اغلب المؤرخين و قسمت في مجملها الى خمس روايات تعطي لكل واحدة منها مفهوما خاصا للكلمة.**(شنعة خديجة : 215،214).**

ثانيا: أهم المالك البربرية في الجزائر.

1.مملكة نوميديا :

أطلق اسم النوميديين على الامازيغ بصفة عامة، وساكنة الجزائر بصفة خاصة. ويبدو أن نوميديا لفظة بربرية الاصل الا أنها امتزجت قديما بكلمة نومياديس اليونانية التي تعني الرعاة الرحل. وتعني الكلمة أيضا تلك المنطقة التي تسمى بالجزائر. وتمتد من ملوية شرقا إلى ضواحي تونس غربا. وتعد سيرتا "قسنطينة" عاصمة نوميديا، وفيها دفن الملك الامازيغي مسينيسا. وقد حكم هذه الامارة كثير من ملوك البربر، أمثال: غايا، ويوبا ، الاول ، ويوبا الثاني، وماسينيسا، وماسيبسا، ويوغرطة، وبطليموس...وتضم نوميديا قبيلتين كبيرتين هما: الماسيليون أو المازوليون " Massyles "في الشرق، والماساسيليس أو ماسايسولي " Massaesyles "في الغرب.

وهكذا، فالنوميديون هم ساكنة أمازيغية كانت تقطن مملكة نوميديا التي كانت تمتد من تونس غربا إلى نهر ملوية شرقا. وقد قامت هذه المملكة بدور تاريخي هام إبان الرومان، وكانت معقال للمقاومة والتحدي والصمود ، ولا سيما في عهد يوغرطة، وتاكفاريناس، ويوبا الأول . (جميل حجداوي:44،2016).

1.1.مملكة نوميديا الغربية (الماسيسيل :((Masaeyles)تقع في الغرب (العائلة الملكية الماسيسيلية وعاصمتها سيقا(Siga) ، ومن الممكن أن تكون قبائل مازيسيل (الماسيسيل) منحدرة من المغرب الأقصى، وتمتد من ملويا (واد ملوية) إلى الواد الكبير، وكانت سيرتا (قسنطينة) قسماً من هذه المملكة، وعاصمتها "سيقا" الواقعة غرب تلمسان، ومن أقدم ملوكها الملك سيفاقص حكم مدة 27 عاما، و قد كان الملك سيفاقص فترة من الزمن سيداً على جميع المنطقة المعروفة اليوم باسم الجزائر، وكان له عاصمتان في آن واحد، و هما سيقا و سرتا.(نبيلة بن يحي : 1).

1.2.مملكة نوميديا الشرقية (الماسيل :(Massyles تقع في الشرق (العائلة الملكية الماسيلية وعاصمتها سيرتا)، ومن الممكن أن تكون قبيلة ماسولة (الماسيل) منحدرة من الأوراس، ولقد كانت أقل مساحة، تشمل القسم الشرقي من مقاطعة قسنطينة، تمتد من غرب الأمسكا (Amasga) حتى الأراضي القرطاجية، وعاصمتها زاما.(Zama)

أسند تأسيسها إلى الأسرة الماسيلية التي ينتمي إليها ماسينيسان وأحفاده، هؤلاء وبعد توفر الشروط الملائمة لتكوين الدولة انتقلوا إلى سيرتا، وهناك ظهرت في شكلها الملكي الذي عرفت به منذ القرن الثالث قبل الميلاد.

ولقد تعاقب على حكمها عدة ملوك، إذ يعتبر الملك "غايا (Gaia)"أول ملك سهر على تأسيس النواة الأولى للدولة النوميدية الشرقية، بينما يعتبر الملك ماسينيسا (حكم مدة 56 سنة، وهو رابع ملك بعد والده، وعمه وابن عمه) أهم ملك من ملوك المملكة النوميدية الشرقية، وذلك نظراً لما عرفته المملكة من تطورات في عهده، وهذا ما سنحاول ذكره فيما بعد.(نبيلة بن يحي : 1).

2. أهم الملوك البربر:

1.2.ماسينيسا :

حسب "بوليب "يعتبر ماسينيسا الملك الذي عمم الفلاحة في نوميديا ، اما حسب راي "سترابون" فان ماسينسا قد جعل النوميد اجتماعيين اي مدنهم و جعل منهم فلاحين اما "ماكسيم فاليريوس" فيرى ان ماسينيسا اقام مملكة شاسعة جعلها خصبة بفضل العناية التي اولاها للفلاحة ، و من جهته ثمن" أبيان" عمل ماسيسنيسا قائلا : ساعدته العناية الالاهية في اصلاح قطر شاسع ، فوفر للنوميد غذائهم و كانوا قبلة لا يكادون يجدون الثمار البرية غذاء لانهم لا يتعاطون الزراعة .

واذا تتبعنا افكار المؤرخين المحدثين نجدهم ينسبون الى الامير الماسيلي معارف عميقة في الاقتصاد السياسي حيث يقول "اقزال" انه وجد فيها منافع باعتباره ملكا .(العربي عقون:19).

2.2.يوغرطة:

ولد يوغرطا ابن مسطنبعل سنة 160 ق.م وجده ماسينيسا على قيد الحياة ، بحيث وصفه المؤرخ الروماني "كايوس سالوستيوس " في كتابه حرب يوغرطة، "في شبابه كان قويا، وسيما مثل النوميديين مولعا بركوب الخيل وفقا لعادات النوميد ، محبا للرماية و التسابق مع اقرانه من الشباب ، و كان يقضي جل وقته في الصيد "،كما وصفه ايضا بانه كان متواضعا لبني قومه ، ونشاطه الدائم و ذكاؤه الحاد ، اكسباه حب و ثقة النوميد له. **(بوزيد دوة: ،2022،51)**

3-مملكة موريطانيا.

شكلت مملكة موريطانيا لوحة تاريخية متكاملة في شمال أفريقيا، حيث برزت كمركزا حضاريا متميزا انتقل من نظام الممالك المحلية إلى المقاطعات الرومانية. وقد تمثلت في مملكتين هما:

أ-موريطانيا الطنجية:

كانت مملكة قديمة ثم أصبحت مقاطعة رومانية في أقصى غرب شمال أفريقيا، شملت ما يُعرف اليوم بشمال المغرب وجزء من الجزائر الغربية، وكانت عاصمتها طنجة (تينجيس). يحدها شرقاً موريطانيا القيصرية، وغرباً المحيط الأطلسي، وشمالاً البحر المتوسط، وجنوباً سلسلة جبال الأطلس.

تطور حكمها من نظام ملكي محلي تحت حكم ملوك أمازيغيين، أشهرهم بوخوس الأول وبوخوس الثاني، إلى مقاطعة رومانية عام 40 م بعد مقتل الملك بطليموس على يد كاليجول.

تميزت المنطقة باقتصاد متنوع اعتمد على الزراعة، خاصة إنتاج الزيتون والحبوب، وتربية الماشية، والتجارة البحرية عبر موانئها المهمة مثل طنجة وليكسوس. شهدت المنطقة امتزاجاً حضارياً بين الثقافة المحلية الأمازيغية والتأثيرات الفينيقية والرومانية، وتركت آثاراً عمرانية مهمة مثل مدينة طنجة القديمة. استمرت المقاطعة تحت الحكم الروماني حتى القرن الخامس الميلادي، حيث تعرضت لغزوات الوندال ثم دخلت تحت الحكم البيزنطي.

ب-موريطانيا القيصرية:

كانت مملكة قديمة ثم تحولت إلى مقاطعة رومانية في شمال أفريقيا، امتدت على طول الساحل المتوسطي في ما يعرف اليوم بالجزائر الوسطى والغربية، الجزائر في العصور القديمة، كان يحدها شرقاً نوميديا وغرباً موريطانيا الطنجية وجنوباً الصحراء الكبرى. اشتق اسمها من "موري" نسبة إلى السكان الأصليين، وأضيفت "القيصرية" نسبة للإمبراطور كلوديوس.

مرت المنطقة بمرحلتين تاريخيتين رئيسيتين: الأولى تحت حكم الملوك المحليين مثل ماسينيسا ويوبا الثاني، والثانية كمقاطعة رومانية بعد تقسيم المملكة عام 40 م، وتميزت المنطقة باقتصاد متنوع اعتمد على الزراعة، خاصة القمح والزيتون والعنب، والتجارة البحرية والبرية. أما اجتماعياً، فقد تكونت من مزيج من السكان الأصليين (الموريين) والرومان واليهود والأفارقة. عاصمتها كانت قيصرية (شرشال

حالياً) وتميزت بعمارة متطورة شملت المسارح والحمامات والمعابد والأسواق. واجهت المنطقة في نهايتها تحديات كبيرة تمثلت في الثورات المحلية والضغوط الخارجية والأزمات الاقتصادية.

ثانيا-التوسع الفينيقي في شمال إفريقيا.

1-من هم الفينيقيون؟

الفينيقيون شعب سامي متفرع عن الكنعانيين استوطنوا الساحل السوري، بداية من القرن 12 ق.م، اشتغلوا بالتجارة والملاحة وبرعوا في صناعة السفن، كانوا يمتلكون تجارة شرق البحر المتوسط، ولكنهم اصطدموا بمنافسة الإغريق اليونان، وسعوا مناطق نفوذهم إلى شمال إفريقيا، وصقلية واسبانيا، وبنوا محطات تجارية لهم على طول الساحل المتوسطي المغربي، فأنشؤوا بداية مدينة أوتيكة(المدينة العتيقة) بتونس سنة 1101 ق.م، ثم بنوا قرطاج (المدينة الجديدة) سنة 814 ق.م التي أصبحت عاصمة لهم بعد سقوط صور والمدن الفينيقية السورية بيد الآشوريين.

فينيقيا اسم مشتق من الكلمة اليونانية (phoinix)، أي الأحمر الأرجواني نسبة إلى صناعة الصباغ الغالية على الصناعة في البلاد علماً أن كلمة فينبقى أصبحت حوالي(1200 ق م)مرادفة لكلمة كنعاني، الذين تاجر معهم اليونانيون لمدة طويلة).

وهناك من يذهب في تسمية الفينيقيين إلى أن الإغريق، أطلقوا هذا الاسم على سكان الساحل السوري الممتد من سوريا إلى فلسطين مروراً بالأراضي التي تسعى الآن (لبنان) وهي كلمة إغريقية معناها (اللون الأحمر).وقد تعود هذه التسمية إلى سمرة بشرة سكان تلك المنطقة أو إلى شهرتهم في صناعة الصبغ الأرجواني .

يُنسب بعض المؤرخين هذه التسمية إلى طائر الفينيق ذي اللون الأحمر، وهو بحسب الأسطورة طائر يحرق نفسه ثم يبعث حياً من رماده ويذهب بعضهم الآخر أن الاسم مشتق من (فينيقس)، وهي كلمة يونانية معناها شجر النخيل باعتبار أن أراضي فينيقيا، كانت غنية بها في الأزمنة القديمة.**(ماجد احمد علي الحمداني: ، 485،2017).**

2-دو افع التوسع الفينيقي في شمال افريقيا:

من خلال ما تقدم في الخريطة يتضح جليا بأن الفينيقيون أتوا من الساحل الشرقي للبحر الأبين المتوسط بهدف التوسع نحو شمال إفريقيا، ويرجع ذلك إلى جملة من الدوافع الموضحة فيما يلي:

1-الدو افع التجارية:

- البحث عن أسواق جديدة
- السيطرة على طرق التجارة البحرية
- الوصول إلى مصادر المعادن الثمينة.

2-الدو افع السياسية:

- الضغط الآشوري على المدن الفينيقية
- البحث عن مناطق نفوذ جديدة
- تأمين الموانئ الاستراتيجية.

وقد تمت مرحلة التوسع على مرحلتين هما:

المرحلة الأولى ما بين 1100-900ق.م: خلال هذه الفترة بدأت الحضارة الفينيقية مرحلة استكشافية مهمة على سواحل شمال أفريقيا. في هذه المرحلة الأولى، اقتصرت أنشطتهم على استطلاع السواحل وإنشاء محطات تجارية مؤقتة، حيث حرصوا على بناء علاقات أولية مع السكان المحليين البربر. كانت هذه الخطوات الأولى تهدف إلى فهم طبيعة المنطقة وإمكاناتها التجارية والاقتصادية.

المرحلة الثانية ما بين 900-600 ق.م: وفيها انتقلت الأنشطة الفينيقية إلى مستوى أكثر تعقيدا وعمقا، حيث تحولوا من مجرد زوار مؤقتين إلى مؤسسين دائمين. وتُعد تأسيس مدينة قرطاجة عام 814 قبل الميلاد نقطة تحول استراتيجية، حيث أصبحت المدينة مركزاً تجارياً وحضارياً رئيسياً. عملوا خلال هذه الفترة على توسيع شبكة مراكزهم التجارية على طول السواحل الأفريقية، مما مهد الطريق لتأثير حضاري عميق في المنطقة.

3-نتائج التوسع الفينيقي في شمال إفريقيا:

شكّل التأثير الفينيقي في شمال أفريقيا منظومة متكاملة من التأثيرات الاقتصادية والثقافية. فعلى الصعيد الاقتصادي، طوّر الفينيقيون نظاماً تجارياً متطوراً اعتمد في البداية على نظام المقايضة، ثم انتقل لاحقاً إلى استخدام العملة القرطاجية كوسيلة للتبادل التجاري. برعوا في تطوير طرق التجارة وفتح أسواق جديدة، مما وسّع نطاق تأثيرهم الاقتصادي.

وازدهرت تحت أيديهم صناعات متعددة أثرت بشكل جذري في الاقتصاد المحلي، مثل صناعة الأرجوان الشهيرة التي اشتهروا بها، وصناعة الزجاج المتقدمة، وصناعة السفن التي مكّنتهم من التوسع البحري. أما على الصعيد الثقافي، فكان للفينيقيين بصمة واضحة في مجال الكتابة، حيث انتشرت أبجديتهم بسرعة وتطورت إلى الكتابة البونية، تاركين إرثاً كتابياً غنياً من النقوش والكتابات. كما برع الفينيقيون في الفنون والعمارة، مطورين أساليب معمارية فريدة وإبداعات في النحت والفخار والزخارف، مما أثرى المشهد الثقافي للمنطقة بتراث فني متميز.

أما من ناحية المستوطنات الفينيقية فقد بنوا العديد من المدن على الساحل الجزائري مثل: هيبون (عنابة)، روسيكاد (سكيكدة)، صلداي (بجاية)، إيكوزيم (الجزائر العاصمة)، تيبازا وإيول (شرشال)، وموريسطاقا (مستغانم).

4.ثالثا -علاقة الفينيقيين بالسكان المحليين(البربر).

تميزت علاقة الفينيقيين بالأمازيغ أو البربر السكان المحليين بشمال افريقيا بالتعقد، حيث تأثرت بالتفاعل والتبادل الثقافي والاقتصادي والاجتماعي. ويمكن تلخيص هذه العلاقة في عدة محاور رئيسية:

1. **التبادل التجاري:** شكل التبادل التجاري أساس التواصل الأول بين الفينيقيين والأمازيغ. قدم الفينيقيون سلعاً متطورة مثل الأقمشة والمعادل المصنعة، بينما قدم الأمازيغ المواد الخام كالمعادن والمنتجات الزراعية. كانت الموانئ مثل قرطاجة مراكز رئيسية لهذا التبادل.
2. **التأثير الثقافي والحضاري:** حدث تبادل ثقافي عميق بين الطرفين. تعلم الأمازيغ من الفينيقيين الكتابة والصناعات المتقدمة، فيما نقل الأمازيغ للفينيقيين معرفتهم المحلية بالأرض والزراعة. ظهرت الثقافة البونية كنتيجة مباشرة لهذا التفاعل.
3. **العلاقات الاجتماعية:** حدث اختلاط اجتماعي واسع من خلال الزواج المختلط وتبادل السكان. نشأت مجتمعات مشتركة في المدن الساحلية، وتكونت طبقة متمازجة من التجار والحرفيين.
4. **التحالفات والصراعات:** لم تكن العلاقة سلمية دائماً. شهدت المنطقة فترات من التحالفات السياسية وأخرى من الصراعات، خاصة عندما حاولت قرطاجة التوسع في المناطق الداخلية.
5. **التأثير اللغوي:** تأثرت اللغات المحلية بالتأثيرات الفينيقية، وظهرت لغة البونية كلغة مشتركة في بعض المناطق.
6. **الممارسات الدينية:** حدث تبادل في الممارسات الدينية، حيث تأثر الأمازيغ ببعض الطقوس الفينيقية، وانتشرت عبادات مشتركة.

وعليه فهذه العلاقة المعقدة كانت أشبه بـ"تحالف استراتيجي" مبني على المصالح المشتركة والتكامل الاقتصادي والثقافي، وليس مجرد علاقة استعمارية بسيطة.

5. خاتمة:

في ختام هذه المحاضرة حول الممالك البربرية وعلاقتهم بالفنيقيين في شمال أفريقيا، يتضح أن هذه الحضارة كانت أكثر من مجرد قوة تجارية عابرة، حيث مثّل الفينيقيون نموذجا للتوسع الحضاري القائم على الانفتاح والتبادل الثقافي، واستطاعوا أن يتركوا بصمة عميقة في المنطقة، ولم يكن توسعهم مجرد غزو عسكري، بل كان عملية تفاعل حضاري معقدة أسست لنموذج فريد من التعايش والتبادل الثقافي. وشكلت تجربتهم في شمال أفريقيا مختبراً حياً للتواصل بين الحضارات، حيث مزجوا بين مهاراتهم التجارية وقدرتهم على الاندماج مع الثقافات المحلية.